الفصل الأول

ثقافة المتغيرات في حوار الوحدة

عصام عبد الله(*)

سؤال الهوية ومنطق الشبيه

طرح كانط ـ قبل اكثر من مائتي سنة ـ إشكالية العلاقة بين الوحدة والتنوع داخل الثقافة الواحدة من الناحية الفلسفية، وتحديدا في ضوء مناهج التفسير العلمي. فقد بحث في فصل هام من كتابه "نقد العقل الخالص" ناحية خلاف أساسية في مناهج التفسير، وقال إن أحد المنهجين يتبع مبدأ "الوحدة" بينما يتبع المنهج الأخر مبدأ "التنوع".

ويحاول المبدأ الأول رد الظواهر المتباينة إلى حد مشترك. بينما يرفض المبدأ الأخر قبول هذه الوحدة المزعومة أو التشابه المزعوم. فهو دائم البحث عن الاختلافات بدلا من تأكيد الملامح المشتركة. ولا تعارض فعلى بين المبدأين في نظر كانط، لأنهما لا يعبران عن أي اختلاف أو نطولوجى أساسي، أي اختلاف في طبيعة الأشياء في ذاتها وماهيتها.

انهما يمثلان بالأخرى اهتماما مزدوجا للعقل الإنساني. فلا يمكن للمعرفة الإنسانية الاهتداء إلى غايتها إلا إذا اتبعت الطريقتين معا، وعنيت بالأهتمامين معا. فعليها أن تعمل وفقا لمبدأين، "منظمين" مختلفين: مبدأ المشابهة ومبدأ الاختلاف، مبدأ الوحدة ومبدأ التنوع أو تعدد الأجناس.

ولا غناء عن القاعدتين على السواء، كي يقوم العقل الإنساني بمهمته. فما يحقق الموازنة للمبدأ المنطقي القائل بانطواء الأشياء تحت جنس واحد ـ أي المبدأ الذي يؤكد الهوية ـ هو المبدأ الأخر بوجود أنواع مختلفة، الذي يطالب بوجود جوانب متعددة في الأشياء وتنوع فيها ويوعز إلى الفهم بضرورة توجيه قدر متساو من الاهتمام إلى المبدأين.

الأهم من ذلك انه أكد ـ ولأول مرة ـ أن "الآخر" المغاير، لا ينبغي النظر إليه فقط من

(*) أستاذ الفلسفة المساعد ـ كلية الآداب ـ جامعة عين شمس.

زاوية ما يمثله بالنسبة ل "الأنا" بل ينبغي النظر إليه كشخص متفرد ، أي كغاية في ذاته وكقيمة مطلقة .

وقد تعددت الحقول المعرفية التي اهتمت بالقضايا المتصلة بالذات والأخر ، الوحدة والتنوع ، وأسهم هذا التعدد بدورة في إنتاج معان متعددة ، بل أحيانا متباينة ، لكلا المفهومين . وكان وليم جيمس أيضا هو أول من قدم صياغة نظرية حول مفهوم "الذات" نهاية القرن التاسع عشر ، لتتالى بعده إسهامات "جيمس بالدوين" **Baldwin** ، وتشارلز كولى **cooley** ، وجورج ميد **Mead** ، وغيرهم ، وكلها أكدت مكونين أساسيين الأول معرفي ، والثاني تقييمي ، وكلاهما يتشكلان خلال خبرة الذات مع نفسها ومع الأخر ، بما يشي بعدم غياب أي من هذين المكونين عند تحديد معنى كل من الذات والأخر .

ورغم أن كثرة ما كتب عن الهوية طوال تلك الفترة قد أدى إلى ما أسماه سار تر ذات يوم "فلطحة" المصطلح ، بحيث يتسع لكي يشمل العديد من الدلالات ، على حساب دلالته الأصيلة ، فإن أحد أهم التحولات الأساسية التي حدثت في المحيط الاجتماعي السياسي ، في العقد الأخير من القرن العشرين هو التحول من "الوحدة" إلى "التعدد" . وصار التعدد والاختلاف هو الهدف ، أما الوحدة فيعترف بها فقط من خلال النظر إلى الاختلافات أو من خلال وضع التمايزات في الاعتبار . والسبب في هذا التحول إنما يكمن فيما احتلته "الهوية" من أهمية متزايدة ومتنامية بفعل العولمة .

تزامن ذلك مع ظهور ثورات معرفية ومنهجية طالت العلوم الإنسانية بعامة والفلسفة تحديدا التي تمثل التيار الجوفي لهذه النقلة الكيفية اليوم . ففى كتابة "ما الفلسفة" عرف جيل دولوز الفلسفة بأنها "صداقة المفهوم" ناقضا التعريف التقليدي "حب الحكمة" ورغم أن لفظة **PhiIia** الإغريقية تعنى الحب والصداقة معا فان الفارق بينهما كبير ، فالصداقة تسمح بمسافة مناسبة تمكننا من رؤية الأمور على حقيقتها لا الذوبان والاستغراق فيها أو الانفصال و الانعزال عنها . وهذه النقلة من "الحب" إلى "الصداقة" ومن "الحكمة" إلى "المفهوم" هي جوهر كل فعل نقدي والمحرك لكل نقد اليوم ، ولم يعد ينظر إلى المفاهيم من منظور "مع" أو "ضد" ، الحب والكره ، التوله والعداء ، الانصياع والرفض .

هذا من ناحية ، من ناحية أخرى فقد انتفت صفة القداسة عن الكلمات لأنها لم تعد "حكمة" ، ولا يوجد مفهوم مطروح للتداول والنقاش ، بما في ذلك مفهوم الهوية ذاته ، لا يطالة النقد أو غير قابل للنقد .

كما أننا مؤمنون جميعا بالتعددية وبالتنوع والاختلاف ، ونسر كثيرا عند سماعها أكثر

من الأحادية والشمولية والتماثل، لكن المسالة ليست هذه الكلمات ذاتها وإنما "عبادتها" وكما لاحظ رسل جاكوبى فإنها أصبحت كلمات "مقدسة" أو أريد لها ذلك، ومن يرفضها فسيحرق على خازوق تمامًا مثلما أحرق جيور دانو برونو لم يسأل أحد أو يسائل نفسه: ماذا تعنى الهوية مثلا في عالم أصبح يتسم بغياب خطوط المرجعية؟ خاصة وان العولمة لا هوية لها بل هي التي تحدد كل هوية ؟

ما قدر التعدد والاختلاف في التعددية أو التنوع ؟ ماذا تعنى كلمات مثل "تعدد" و"تنوع" و"اختلاف" أساسا؟ على عكس ما هو شائع، تكشف "صداقة المفاهيم" أن الأمور تمضى من دون توقف نحو "التماثل" لا التعدد والاختلاف، وهنا تكمن المفارقة، وان شئت المراوغة، فهي تقر وتعترف بالتعدد والاختلاف والتنوع، ولكن من أجل الغائه ودمجه في "وحدة" هي "وحدة معنى" أو "هوية مبنى".

إن منطق الهوية هو منطق الشبيه **exempIar** إذا استعملنا لغة در يدا في "سياسات الصداقة" وهو منطق أستعلانى يرفض الأخر وينبذ الاختلاف. وقد دشن ليفيناس ومدرسة ما بعد الحداثة النقد الجذري لفكرة الشبيه إذ أن تحويل الذات إلى موضوع أو التعامل مع الأخر كموضوع يعد عملاً تعسفيًا. وسبق لإدوارد سعيد في كتابة الاستشراق الصادر عام ١٩٧٨م أن نبه إلى أن هذا التحويل للذات إلى موضوع يحط من إنسانية الأخر ، وهو رفض لحقه في الوجود كإنسان له تاريخه وثقافته وطريقته في الحياة.

وهو نفس الفكرة التي عمل در يدا على تفكيكها سواء في قراءته لأخلاق نيقوماخوس لارسطو أو كصداقة شيشرون أو في نقده لكتاب مفهوم السياسة للفيلسوف كارل شميت أو للمقال الافتتاحي لهيدجر أبان تسلمه عمادة جامعة فرايبورج. وهي فكرة أو تقليد لا يسود فقط الفلسفة اليونانية القديمة والفلسفة الأوربية الحديثة ولكن أيضا كل الديانات التوحيدية التي تجمد "الأخ" وتعلى من شان "الاخوة" على حساب الغيرية والاختلاف.

وقد ربط أر سطو في "أخلاق نيقوماخوس" بين الصداقة والديمقراطية، فالمجتمعات الأبوية والدينية لا تسمح بالصداقة بل تخشاها؛ بل إن أرسطو يرى أنه حيث تسود الصداقة لا يحتاج المرء إلى العدالة.

وحذر در يدا في كتابه "مارقون" **voyoucratie** من الديمقراطية القادمة، التي تقوم على منطق الأخ والشبيه. يقول "لا خطر على الديمقراطية القادمة ألا من حيث يوجد الأخ، ليست بالضبط الاخوة كما نعرفها، ولكن حيث تصنع الاخوة القانون، وتسود دكتاتورية سياسية باسم الاخوة". وهو ما أكده مرارا من أن الدعوة إلى الاخوة اليوم تلغى الغيرية وكل حق في الاختلاف.

ويرى انه إذا ما كانت هناك من أخلاق خالصة فهي تلك الأخلاق التي لا تبغي امتلاك الأخر لان كل معرفة هي سيطرة. وهى نفس الفكرة التي دافع عنها الفيلسوف ليفيناس حين تحدث عن ضرورة الحفاظ على مسافة أو قطيعة بين الأنا والأخر، فكل معرفة سلطة وكل سلطة عنف .

من هنا دعا إلى أخلاق تتأسس على "الآخر" وعلى المسئولية تجاه الآخر وبلغة ليفيناس نفسه: على علاقة "وجه ـ وجه" وليس "كتف ـ كتف" التي تسود المجتمعات الأخواتية.

obeikandl.com